العلوم عند العرب

(تابع لما في الجزء الثامن)

واما الفلسفة فكان اكثر اشتغالهم منها بما وراء الطبيعة على مذهب ارسطو واول من اشتهر منهم بها يعقوب الكندي الملقب بفيلسوف العرب من رجال القرن الثالث ولهُ عدة تآليف في المنطق والفلسفة الباطنة وشروحٌ على كتب ارسطو وكان من المتعاطين الطب ايضاً ولهُ مصنفاتٌ في الهندسة والحساب والموسيقى والهيئة . ومن معاصريهِ اسحق بن حُنين العباديّ وثابت بن قُرّة وقسطا بن لوقا البعلبكي ويوحنا بن البطريق وغيرهم ممن تقدم ذكرهُ اشتغل اكثرهم بالفلسفة وعرّبوا كتبها فيما عرّبوهُ من كتب اليونان وكان اكثر ما عرّبوهُ في الفلسفة عن السريانية وكان قصاراهم نقل تلك الكتب الى العربية ودراستها وتفهُّم اغراضها لم يكادوا يخرجون الى غير ذلك . ثم نبغ بعد اوائك جماعةٌ اشتهروا في الآفاق وكانوا اساتذة الحكمة وقادة طلاّبها منهم ابو نصر محمد بن محمد بن طَرْخان بن أَوْزلَغ الفارابي من رجال القرن الرابع قال ابن خلّكان وهو اكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبتهُ في فنونهِ والرئيس ابو عليّ بن سيناء بكتبهِ تخرّج وبكلامهِ انتفع في تصانيفهِ[1] .

---

(١) حكى ابن سيناء عن نفسهِ قال قرأت كتاب مابعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيهِ والتبس عليَّ غرض واضعه حتى اعدت قرآءتهُ اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمهُ وأيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمهِ واذا انا يوماً حضرت وقت العصر في الورّاقين وبيد دلال مجلد ينادي عليهِ فعرضهُ عليَّ فرددتهُ ردّ متبرم معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم فقال اشترِ مني هذا فانهُ رخيص ابيعكه بثلاثة دراهم فاشتريتهُ فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة

وكان رجلاً تركياً وُلد في فاراب ونشأ بها ثم خرج منها وتنقلت بهِ الاسفار الى ان وصل الى بغداد وهو يعرف اللسان التركي وعدة لغاتٍ غير العربي فتعلمهُ واتقنهُ غاية الاتقان ثم اشتغل بعلوم الحكمة ولما دخل بغداد كان بها ابو بِشر متى بن يونس الحكيم المشهور وهو شيخ كبير وكان يقرأ الناس عليهِ فن المنطق ويجتمع في حلقتهِ كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق وهو يقرأ كتاب ارسطاطاليس ويملي على تلامذته شرحهُ فكتب عنهُ في شرحهِ سبعين سفراً . ثم ارتحل الى مدينة حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني فاخذ عنهُ طرفاً من المنطق ايضاً ثم قفل راجعاً الى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب ارسطاطاليس وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على اغراضهِ فيها . ويقال انهُ وُجد كتاب النفس لارسطاطاليس وعليهِ مكتوب بخط ابي نصر اني قرأت هذا الكتاب مئة مرة ونُقل عنهُ انهُ كان يقول اني قرأت السماع الطبيعي لارسطاطاليس الحكيم اربعين مرة وارى اني محتاج الى معاودة قرآءتهِ . وذكرهُ صاعد بن احمد القُرطبي في كتاب طبقات الحكمآء فقال الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة اخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن خيلان فبذّ جميع اهل الاسلام واربى عليهم في التحقيق لها وشرح غامضها وكشف سرها ونبه على ما اغفلهُ الكنديّ وغيرهُ من صناعة التحليل وانحاء التعاليم فجآءت كتبهُ في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة . ثم لهُ بعد هذا كتابٌ شريف في احصآء

فرجعت الى بيتي واسرعت قرآءتهُ فانفتح عليَّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انهُ قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقرآء شكراً لله تعالى . اه عن ابي الفرج

العلوم والتعريف باغراضها لم يُسبق اليهِ ولا ذهب احدٌ مذهبهُ فيهِ • انتهى ملخصاً • وللفارابي عدة تآليف في الفلسفة والموسيقى والسياسة المدنية وغيرها ولهُ تعريب كثيرٍ من كتب ارسطو وقد طُبع بعض مصنفاتهِ في البلاد الاوربية واشهرها كتابهُ في السياسة المدنية طُبع في ليدن سنة ١٨٩٥

وجآء بعدهُ الشيخ الرئيس ابو عليّ الحُسين بن سينآء الطبيب الفيلسوف المشهور وُلد في اواخر القرن الرابع وكان نادرة عصره في العلم والذكآء • قال ابن خلكان لما بلغ عشر سنين من عمرهِ كان قد اتقن علم القرآن العزيز والادب وحفظ اشيآء من اصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة ثم قرأ على الحكيم ابي عبد الله الناتليّ كتاب ايساغوجي واحكم عليهِ علم المنطق واقليدس والمجسطي وفاقهُ اضعافاً كثيرة حتى اوضح لهُ منها رموزاً وفهَّمهُ اشكالاتٍ لم يكن الناتليّ يدريها • ثم اشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والالهي وغير ذلك ثم رغب في علم الطب حتى فاق فيهِ الاوائل والاواخر في اقل مدّة وسنُّهُ اذ ذاك ست عشرة سنة • وذُكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خُراسان في مرض مرضهُ فاحضرهُ وعالجهُ حتى برئ واتصل بهِ وقرب منهُ ودخل الى دار كتبهِ وكانت عديمة المثل فيها من كل الكتب المشهورة بايدي الناس وغيرها فظفر ابو عليٍ فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها وحصّل نُخَب فوائدها واطّلع على اكثر علومها ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمرهِ الا وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها • انتهى باختصار

ولابن سينآء ما يقرب من مئة تصنيف دلّت على انفساح ذرعهِ وغزارة مادّتهِ اشهرها كتاب القانون في الطب وهو في اربعة عشر مجلداً

وكتاب الشفآء في ثمانية عشر مجلداً جمع فيهِ العلوم الفلسفية وكتاب النجاة في ثلاثة مجلدات وهو مختصر الشفآء كتبهُ لبعض اصحابهِ وهو يشتمل على المنطق والطبيعيات والالهيات وكتاب الحكمة العرشية في الالهيات وكتاب تدبير الجند والممالك في الارزاق والخراج وكتاب المدخل الى صناعة الموسيقى وغير ذلك مما يطول تعدادهُ . وقد طُبع جانبٌ من تصانيفهِ بالعربية في مدينة رومية سنة ١٥٩٣ ونُقل القانون منها والكتب الفلسفية والمنطقية الى اللاتينية وغيرها من لغات اوربا ولبثت هي الدستور المعوَّل عليهِ في مدارس اوربا الطبية والفلسفية ما ينيف على ٦٠٠ سنة

ومن فلاسفتهم فخر الدين الرازي ابو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري الطَبَرستاني المعروف بابن الخطيب من اهل القرن السادس قال ابن خلكان كان فريد عصرهِ ونسيج وحدهِ فاق اهل زمانهِ في علم الكلام والمعقولات وعلم الاوائل وذكر لهُ عدة تصانيف منها في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الاربعين والمحصَّل وغيرها وفي الحكمة الملخَّص وشرح الاشارات لابن سينآء وشرح عيون الحكمة وفي الطبّ شرح الكليات للقانون وغير ذلك

ومنهم نصير الدين الطُوسي من رجال القرن السابع وهو صاحب البصائر النصيرية في علم المنطق وعَضُد الدين الإيجي من اهل القرن الثامن وهو صاحب كتاب المواقف المشهور في علم الكلام وعليهِ شرحٌ جليل للسيّد عليّ الجرجاني من اهل القرن التاسع وهو آخر من يُذكر من اهل هذه الطبقة بالمشرق

واما في بلاد الاندلس فممن اشتهر بالعلوم الفلسفية ابن حزم ابو محمد عليّ بن احمد بن سعيد من اهل قُرطبة وُلد في اواخر القرن الرابع وكان متفنناً في علومٍ جمة ولهُ تصانيف كثيرة منها كتاب الفصل بين اهل الاهوآء والنحل وكتاب اخلاق النفس وكتابٌ في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض وكتاب التقريب بحدّ المنطق وغيرها

ومنهم ابن باجة ابو بكر محمد بن يحيي التُجيبي السَرَقُسطي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس كان من اكابر فلاسفة العرب بالاندلس وكان لهُ باعٌ طويل في علم الهيئة والرياضيات والطب والموسيقى وصنّف في الرياضيات والمنطق وشرح طائفةً من كتب ارسطو منها كتابهُ في علم الطبيعة وكتاب الكون والفساد وبعض كتاب الحوادث العُلوية وغيرها ولهُ عدة رسائل في اغراضٍ فلسفية منها رسالةٌ في النفس واخرى في اتصال العقل بالانسان ورسالة عنونها برسالة الوداع وهي تشتمل على مباحث في القوة المحركة في الانسان العاقل وخلود النفس ولهُ غير ذلك

ومنهم ابن الطُفَيل ابو بكر محمد بن عبد الملك القيسيّ الفيلسوف الطبيب وكان معاصراً لابن الصائغ وهو فيما ذكروا اول من قال بتدرُّج الانسان عن الحيوان ولهُ عدة مصنفات في الفلسفة والهيئة وهو صاحب الرسالة المشهورة في اسرار الحكمة المشرقية التي سماها بحيّ بن يقظان اودعها من اسرار العلوم والحكمة ما دلّ على غزارة مادّتهِ وتبحرهِ في العلوم الفلسفية

ومن معاصريهِ القاضي ابو الوليد محمد بن احمد بن رُشد المالكيّ القُرطبيّ وهو من اشهر علمآء الاندلس وفلاسفتها وكانت لهُ الشهرة العالية في الطب

اخذهُ عن ابي جعفر بن هرون الاسرائيلي ثم نزع الى الحكمة واشتغل فيها على ابن الصائغ المقدم ذكرهُ فحسن اثرهُ فيها وصنّف وافاد واشتهر بتفسير كتب ارسطو وتقريب منالها وكان يجلهُ كثيراً ويرى انهُ قد انهى العلم الى ابعد غاياتهِ . وقد خدم مؤلفاتهِ في اكثر العلوم التي صنّف فيها فاختصر بعضها وشرح بعضاً شروحاً متفاوتة واوضح اشاراتها وبسط اغراضها وعلى الجملة فانهُ استقصى شرح مذهب ارسطو الى ما لا غاية وراءهُ . ولهُ تصانيف كثيرة غالبها في الاغراض الفلسفية ولهُ مؤلفٌ جليلٌ في الطبّ سماهُ الكليات في معالجة الامراض وشرحٌ على ارجوزة ابن سيناء وآخر على القانون وتلخيص لبعض مؤلفات جالينوس في الاستقصّات والامزجة والعلل والاعراض والحميات وغيرها وهو آخر فلاسفة العرب بالاندلس (ستأتي البقية)

التحنيط

كان من معتقد المصريين الاولين ان النفس بعد مفارقتها للجسد ومصيرها الى عالم الارواح تأتي كل يوم وتزور جسدها ما دام على شكلهِ الذي كان عليهِ مدة الحياة وكانوا يسمون هذا الشكل ظلاً او شبهاً هوائياً للجسد وهو انما يبقى ببقاء الجسم القائم بهِ قيام الاعراض بجواهرها فاذا مات صاحبهُ وانحلّ جسمهُ انقطعت النفس عن زيارة الجسد لتبدُّل شكلهِ وزوال الظل الذي كانت تأوي اليهِ ولذلك كان من همهم ان يطيلوا بقاء الجسم بعد الموت ما استطاعوا ليطول تردد النفس عليهِ وتبقى متمتعةً بنوعٍ من حياتها الارضية التي انصرمت بالموت قبل ان تستعيدها بتةً في اوان البعث ومن

ثمّ اخذوا يزاولون صناعة التحنيط حتى بلغوا فيها اعظم مبلغ من الاتقان وامكن ابقاء الجسم قروناً كثيرة من غير ان يمسّهُ البلى

اما مواد التحنيط وطريقتهُ فقد وصفها هيرودوطس وديودورس الصقلي وغيرها بما محصلهُ انهم كانوا اولاً يفرّغون جميع تجاويف الجسد فيستخرجون الاحشاء ويغسلونها بالافاويه المائعة او يتخللونها بسائل من السوائل الكاوية ثم ينزعون ما في الجسم من المواد الشحمية والاجزاء الغشآئية وينقعونهُ مدة شهرٍ او اكثر في محلول النطرون (نترات الصودا) او كربونات الصودا وبعد ذلك يجففونهُ بتعريضهِ للهوآء او الحرارة وفي اثناء التجفيف يطلون بعض اجزآئهِ بالاطلية الحافظة من خارج ويملأونهُ من داخل بمواد عطرية ومانعة من الفساد ومتى تمّ ذلك كلهُ يلفون الجسد بعصائب متظاهرة يغمسونها في محلول الصمغ ويشدّونها على جميع جهات الجسد منعاً لنفوذ الرطوبة والهوآء

وكان التحنيط عندهم على ثلاث طبقاتٍ متفاوتة في تمام الصنعة وبالتالي في طول مدة الحفظ تبعاً لمقدار النفقة وكانت الطبقة الاولى على ما يستفاد من كلام ديودورس تقتضي من النفقة ما تقدَّر قيمتهُ اليوم بنحو ٥٣٠٠ فرنك والطبقة الثانية تقتضي ما يقدَّر بنحو ١٥٠٠ فرنك واما الطبقة الثالثة فكانت بما هو دون ذلك بكثير لاقتصارهم فيها على اقلّ ما يمكن من ضروريات العمل . وكانت لهم في اثنآء التحنيط رسومٌ واحتفالاتٌ غريبة لا بأس من وصف بعضها وذلك انهم متى عمدوا الى تحنيط جثةٍ حُملت الى المكان المعدّ لذلك فتسلَّم الى كهنةٍ قد خُصّص كلٌّ منهم لعملٍ من اعمال التحنيط فيبدأ

بتفريغ الجمجمة بنحو صنّارةٍ من نحاس او شبه تُسلَك في المنخر الايسر ويُستخرَج بها الدماغ ويُملأ مكانهُ افاويه وصموغاً . ثم يأتي واحدٌ من المحنّطين يسمّى بالكاتب فيرسم بالحبر على الخاصرة اليسرى من الجثة بعد اضجاعها على الارض خطّاً من ١٠ الى ١٥ سنتيمتراً ثم يأتي آخر وبيدهِ مُدية من الحجر فيشقّ الخاصرة على طول الخطّ المرسوم فلا يكاد يتمّ ذلك ويخرق جانب الجثة حتى يتناولهُ الحاضرون باللعنات والطرد ويتبعوهُ برجم الحجارة ولكن بحيث لا يؤذونهُ وهو من احتفالاتهم الدينية . وبعد ذلك يقومون صفّاً وعليهم أمارات الحزن والارتعاد ثم يتقدم احدهم ويُدخِل يدهُ في الشق ويخرج الاحشاء ويغسل آخر داخل الجوف بخمر البلح ويذرّ فيهِ الافاويه العطرية ثم تُغمس الجثة في مغطس النطرون او كربونات الصودا فتبقى فيهِ مدة ثلاثين يوماً كما قالهُ ديودورس او سبعين يوماً كما قالهُ هيرودوطس وبعد ذلك يتمّ العمل على ما ذكرناهُ قبل هذا

اما الاحشاء فكانت تُغسل على حدةٍ وتحنَّط وبعد ذلك فاما ان تُردّ الى داخل الجثة قبل مغطس النطرون وهو التحنيط الذي لم يُوفَ حقهُ او ان تُجعَل في اكياس مملوءة موادّ عطرية وتوضع الاكياس مع المومياء بين الساقين او تحت الابط او في مكانٍ آخر واكثر ما يجعلونها في اربع اوانٍ من الخزف او الحجر

وهناك طريقةٌ اخصر من هذه لا يفتحون الجثة ولكن يقتصرون على حقن الباطن من المنافذ الطبيعية بزيت الأَرْز ثم يغمسونها في النطرون وبعد ذلك يطلونها بالقار . واما الفقراء فكانوا يحقنونهم بدهن الفجل

الحرّيف لرخص ثمنهِ او يكتفون بوضع الجثة في النطرون ثم يجففونها في الشمس والجثث التي تعالج بهذه الطريقة تكون قصيرة البقآء

وبعد ان يلفوا الجسم بالعصائب على ما تقدم ولهذا العمل احتفالٌ مخصوص ايضاً يجعلون بين تضاعيفها عقاقير وازهاراً طيبة ومواد عطرية كالراتينج الفينيقي والمُرّ ويضعون في اماكن مخصوصة منها احجبةً تحرس الميت في سفرهِ وراء القبر وينوطون الى عنق المتوفَّى لوحةً من الخشب قد كُتب فيها اسمهُ واذا كان من ذوي الثروة يعلّقون في عنقهِ الخنفساء السرّية بحيث تقع على موضع القلب ويجعلون في اصابعهِ خواتم او طِلَّسمات مع تذهيب الاظفار وتغشية الوجه برقائق الذهب وتغليف الجسم كلهِ بورقٍ من المقوّي مذهَّب او مصوَّر . وبعد الفراغ من ذلك كلهِ يجعلون الجثة في تابوت او تابوتين من خشب السرو أو الجميز وفي الغالب يضعون كل ذلك في ناووس ضخم من الحجر او الخشب

هذا عند المصريين واما عند غيرهم فقد جآء في سفر الايام الثاني انهُ لما مات الملك آسا دُفن في مقبرتهِ في مدينة داود فاضجعوهُ في سرير كان مملوءًا اطياباً واصنافاً عطرة بحسب صنعة العطارين . والظاهر ان هذا لم يكن الا ضرباً من الاكرام للميت واما اذا ارادوا حفظ الجثة مدةً ما كأن تبقى ريثما تتم ايام المناحة مثلاً فالذي رُوي عنهم في اواخر عهدهم قبل التاريخ المسيحي انهم كانوا يغمسونها في العسل وهو ما صنعوهُ لارسطو بولس على ما ذكرهُ يوسيفوس وهي عادةٌ بابلية

ويُذكَر عن سكان جزُر كناري انهم كانوا يستعملون ضرباً من التحنيط

يشبه تحنيط المصريين الا انهُ اتمّ حفظاً للاجساد وكثيرٌ من مومياتهم باقٍ الى اليوم وقد شوهد عدة رؤوس من رؤوس اهل زيلاندا الجديدة وعليها شعرها الكثيف وملامح وجوهها باقيةٌ بحالها وعليها الوشم الذي يتزينون به لم يتغير منهُ شيء وفي رأي بعضهم ان الطريقة التي يستعملها اولئك المتوحشون ليست الا ضرباً من الدباغ بصنفٍ من النبات مع تجفيف الجسم بالحرارة

اما التحنيط في القرون الوسطى وما يليها فقد كانت طريقتهم فيهِ ان يُستخرَج الدماغ فيُدفَن او يحفظ في محلول السليماني الاكّال ثم تنزع الاحشآء الصدرية والبطنية وبعد ان تنظَّف تغمس في محلول مركَّز من السليماني فتُترَك فيهِ مدةً ما وتُغسَل التجاويف الفارغة ويُذرّ عليها السليماني ايضاً وتُطلى بصابون زرنيخي ثم تُرَدّ اليها الاحشآء بعد تجهيزها بما ذُكر وتُحقَن الاوعية بحقنةٍ ممزوجة بالسليماني او الزرنيخ ثم يُلَفّ الجسد بعصائب مغموسة في محلول مركَّز من السليماني

وكانوا اذا فرّغوا الجسد على ماذُكر يتركونهُ مدة شهرين او ثلاثة منقوعاً في محلول مركَّز من السليماني ثم يجففونهُ على شبكةٍ يعرّضونها لحرارة تدريجية في موضعٍ مطلق الهوآء. وهذه الطريقة هي التي كانت تسمى عندهم بالطريقة المصرية وهي اضمن الطرائق لحفظ الجسد زمناً طويلاً غير انها فضلاً عما تستلزمهُ من طول مدة العمل وكثرة النفقة لا يخلو استعمالها من الخطر ولذلك رأى بعضهم استبدالها بطرائق اخر وقد تفننوا في هذا الطرائق باستعمال موادّ مختلفة وُجد ان افضلها كلورور الزنك لما ظهر بعد الامتحان من انهُ يفعل مثل فعل الزرنيخ والسليماني اي انهُ يحفظ الجسد الى ما لا يتناهى.

وقد حُقنت بهِ جثةٌ وكُشف عنها بعد اربعة عشر شهراً فكانت محفوظة حفظاً تاماً وكُشف عن غيرها بعد ثمانية عشر شهراً فكانت كذلك مع بقآء الجسم على طرآءَتهِ واستمرار النُسُج كلها على مرونتها مادام السيال المحقون بهِ لا يتبخر . وآخر ما وُصِف لحفظ الجثث ان تُدفَنَ في المرّ بأن تُجعل في تابوتٍ مملوءٍ منهُ وتُغمَر بهِ من جميع الجهات

وقد اخترع المسيو غاريني طريقةً لم تزل في طيّ الكتمان يمكن ان يحنَّط بها الجسم كلهُ في مدة يومين او ثلاثة وتقتضي من النفقة لا اكثر من ٧٠٠ الى ٨٠٠ فرنك قالوا وهذه الطريقة فضلاً عن ان الجسد يُحفظ بهـا حفظاً كاملاً في جميع اجزآئهِ التشريحيَّة فان هذه الاجزآء تصير في صلابة الحجر ويكون منظرها منظر التماثيل المصنوعة من الشمع وقيل انهُ يمكن ان يُصنَع منها اشيآء مثل التي تُصنَع من الرخام وان تجزَّع كما يجزَّع بعض الرخام في بعض . وقد سبق لنا في مجلد السنة الماضية (ص ١٧٦) نقلاً عن مجلة المجلات ان الدكتور ماريني اهتدى الى مثل هذه الطريقة فتوصل الى اختراع يحيل بهِ جثة الميت الى رخام والعين الى زجاج

وقد رُوي عن رويش الجرّاح الهولندي من اهل القرن الثامن عشر انهُ توصل الى طريقة تحفظ بهـا اشكال الاعضآء ومظاهر الحياة قيل انهُ كان يحقن الجلد بحُقنٍ من الشمع الملوّن على وجهٍ لم يبح بسرّهِ قبل موتهِ ففاتت هذه الصناعة معهُ وقد بالغ احد الشعرآء في وصف مومياتهِ فذكر ان بطرس الاكبر لما زار مجمع آثار رويش قبَّل ولداً صغيراً من تلك المحنطات تمثل لهُ انهُ يبتسم اليهِ

بقي انهُ في بعض الاقاليم قد تُحفَظ الجثث بلا تحنيط اي بمجرَّد طبيعة الاقليم وذلك ان كل احدٍ يعلم ان التجمُّد بالبرد يحفظ الجثث من الفساد وفي سيبيريا من ذلك امثلةٌ غريبة من الماموث المتحجر الذي وُجد تحت الجمد سليماً من العوارض بحيث لم يلمّ بهِ ادنى فساد لا في جلدهِ ولا في لحمهِ . وكذلك الحرّ الشديد يفعل الفعل نفسهُ فقد ذكر همبلد انهُ وجد في المكسيك موميات من هذا النوع وروى بعض السيَّاح انهُ زار بعض ساحات الحرب في مواضع من البلاد الاميركية شديدة الحرّ لا يقع فيها مطر فوجد هذه الساحات مغطاة بجثثٍ قديمة من الاسبنيول واهل البيرو جافةً سليمةً من الفساد . وهناك مواضع اخرى من طبع تربتها ان تحفظ الجثث من غير ان تكون شديدة البرد او الحرّ منها مدفن القديس نقولا بتولوز ومدفن كنيسة القديس ميخائيل ببوردو وقد ذكروا ان هناك ديماساً فيهِ نحو مئة جثة في حالة الموميا وهي من تواريخ متفاوتة ويقال ان منها ما عهدهُ من ست مئة سنة او اكثر واحدثها عهداً وضع هناك منذ مئة سنة

﴿ فونغراف الاب لويس ﴾

وردتنا تحت هذا العنوان الرسالة الآتية فاثبتناها بحروفها

ذكر بعض الائمة قصة زاغ (غراب) رآهُ محمد بن اسمعيل السعدي وقيل ابو الحسن عليّ بن محمد عند احمد بن ابي دؤاد وقيل عند يحيى بن اكثم .. وأن رأس ذلك الزاغ كان رأس انسان وذنبهُ ذنب غراب وانهُ كان شاعراً فصيحاً عاشقاً .....

فاثبت مشرق البدائع قصتهُ نقلاً عن احد مكاتيبهِ الالباء كمن ثبتت عندهُ صحتها واستدركها على مقالة الضياء «التماثيل المتحركة والناطقة» وعقب على هذه القصة

بقوله « كنا نودّ لو افادنا الدميري شيئاً من تركيب هذه الآلة ... ولعلها تشبه الآلة الناطقة المعروفة اليوم بالفونوغراف »

وكاني بحضرة الاب لو نقل شيئاً عن بساط الريح لقال هو « منطاد اليوم » ولو ذكر المارد الذي خرج من الكوز لقال هو « اللعبة التي يسميها الافرنج polichinelle » ولو مرّ بما رووهُ عن الجن وتمثل الارواح لنشر المقالات الضافية في « السيناتوغراف عند العرب »

اما تمنيه « لو افادهُ الدميري شيئاً عن تركيب تلك الآلة » يعني الغراب فقد كان الدميري رحمهُ الله يميز بين الحيوان والجماد ولو ظن الزاغ آلةً لما ذكرهُ في كتابهِ « حياة الحيوان »

على ان جميع من اوردوا قصة الزاغ المذكور ممن استشهد بهم حضرة الاب ومن فاتوهُ قد عدّوهُ في جملة المخلوقات الحية وهذه قصتهُ كما ذكرها القزويني في كتابهِ « عجائب المخلوقات » (ص ٤٥١ من طبعة غوتنجن) في الفصل المعنون « بالحيوانات العجيبة الصور » قال

« ومنها (اي من تلك الحيوانات) ما ذكرهُ ابو سعيد السيرافي عن بعض الكتاب قال دخلت على القاضي يحيى بن اكثم واذا الى جانبهِ طائر في قفص على شكل الزاغ ورأسهُ كرأس الانسان وعلى صدره وظهره سلعتان فقلت ما هذا اصلح الله القاضي فقال اسألهُ فهو يجيبك فقلت للطائر ما انت فنهض وانشد بلسانٍ فصيح

انا الزاغ ابو عجوه   انا ابن الليث واللبوه
احب الراح والريحا   ن والنشوة والقهوه
فلا عربدتي تخشى   ولا تحذر لي سطوه
ولي اشيآء تستظرَ   ف يوم العرس والدعوه
فمنها سلعةٌ في الظهر   لا تسترها الفروه
واما السلعة الاخرى   فلو كانت لها عروه
لما شك جميع النا   س فيها انها ركوه

ثم صاح زاغ زاغ وانطرح . فقلت اصلحك الله اوَهو عاشق فقال هو على ما ترى ولا علم لي به وقد ارسلهُ صاحب اليمن الى امير المؤمنين المامون وكتب لهُ كتاباً لم افضهُ واظن انهُ ذكر فيه شانهُ وحالهُ » انتهى

وهذه الرواية واردة بين خرافات لا يقبلها عقلٌ سليم ومما ذكرهُ القزويني قبلها « امةٌ على صورة الانسان ولهم اجنحة يطيرون بها • وامة رؤوسها رؤوس الناس وابدانها ابدان الحيات • وامة في بعض جزائر الصين لا رأس لابدانهم وافواههم وعيونهم في صدورهم » قال « وسمعت ان واحداً من هذه الامة جآء رسولاً الى عظيم التتار » ••••• وقس على ذلك ما ضاهاهُ من الصور والاشكال التي تولدها المخيلة واغرب ما وصفهُ منها « امةٌ لها رأسان وثماني ارجل رأسٌ واربع ارجل نحو الارض ورأسٌ واربع ارجل نحو الهوآء ••••• وامة يقال لها النسناس لاحدهم نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة كانهُ انسان قدَّ نصفين يقفز قفزاً شديداً يوجد في غياض ارض اليمن » •••••   وما كنا نودُّ من حضرة صاحب المشرق الانور الا ان يصوّر لنا هاتين الامتين الاخيرتين وينشر صورتهما في مجلتهِ حتى تكونا عنواناً ناطقاً بما تنطوي عليه من الحقائق ••••••

على اننا لو قطعنا النظر عما في قصة هذا الزاغ من اختلاف الروايات ونزعنا عنها ما أُلبستهُ من قالب الغرابة مما لا يصدق على آلةٍ او حيوان غير الانسان فليس في اصلها الذي لعلها بنيت عليهِ ما يُنكر على الزاغ لما هو مشهورٌ عنهُ من قوة الحافظة وولوعه بترديد ما يسمعهُ فقد روى بلين ان غراباً كانَ يحيي قيصر واوغسطس وتيبر باسمآئهم وكان احياناً يملأ النفوس المحتشدة في الفوروم دهشاً وسروراً بترديدهِ بعض فِقر مما يسمعهُ من كلام الخطبآء •   وان شيشرون بينا كان في احدى خطبهِ جعل الغراب يردّد بعنف وشدة Tace, nebulo (اخرس يا سفيه) وما لبث الغراب ان اسكت ذلك الخطيب الشهير دون استيفآء كلامهِ

وذكر شوانكفيلد ان فلاحاً المانياً بينما كان يقطع احد الغابات اذ سمع صوتاً من الجوّ يدعوهُ باسمه فرفع رأسهُ فرأى فوقهُ جماعةً من الطيور السود وقد انقضَّ من بينها طائر وحلق بعض حلقات ووقع على كتفه فاذا هو غراب كان ذلك الفلاح قد رباهُ وعاش معهُ زماناً ثم افترقا نحو عامين وقضى الله باجتماعهما

وذكر المؤرخ تورنس عن الملك فرنسيس الاول انهُ كان يستصحب الى الصيد غراباً ابقع فكان يطلقهُ على الطير اطلاق البازي حتى اذا فقأ الغراب عيني فريستهِ وعاد منتصراً وقف على يد مولاهُ وقال Nous avons fait bonne chasse Sire (لقد كان صيدنا غانماً يا سيدي)

فالغراب والزاغ من الطيور القادرة على حكاية صوت الانسان وعليه فان جاز ان تُقبل قصة الزاغ المذكور فلماذا نقول انه « فونوغراف » ولا نقول انه مخلوق حيّ وقد حفظ تلك الابيات كغيره من الغربان ما دام الراوون لو صدقوا يزعمون انه من المخلوقات الحية · والقزويني نفسه الذي نقل عنهُ الدميري يقول في كلامه عن الغراب « و بعض الغربان يأتي بالفاظ صحيحة لا يتهيأ مثلها للببغآء ·· » ولكن هي الاهوآء تعمي وتصمّ

بيروت في ١٧ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٠ جبران نحاس

وجآءتنا رسالة اخرى من احد مشتركينا الادبآء في رومية بمعنى الرسالة المتقدمة فاجتزأنا عن نشرها تفادياً من التكرار لان اكثر ما في الرسالتين واحد غير اننا لا بدّ ان نشير منها الى امرين احدها تعجب حضرة المكاتب من اثبات المشرق لهذه القصة اي قصة الزاغ واستحسانه اياها مع ما فيها من الزيغ عن المعقول والبعد عن مواطن التصديق ولا سيما بعد ما اخذ على الضيآء غير مرة نشرهُ لمقالة « اسرار الكف » الواردة في مجلد السنة الماضية (ص٢٣٤ وما يليها) وانكر عليه مقالة « الرجال المراضع » الواردة في مجلد هذه السنة (ص١٦٦ وما بعد) بدعوى ان هاتين المقالتين تعدًّان من الخرافات التي لا فائدة فيها مع ان صاحبة المقالة الاولى (وهي السيدة لبيبة شمعون) قد صرَّحت في استهلالها بانها لم تؤثر تعريبها عن الانكليزية الا لما رأت فيها من الغرابة ثم تعقبها صاحب الضيآء بما راهُ في آخرها مما نقض به اكثر ما جآء فيها من المزاعم بالدليل العقلي فثبت انهُ لم ينشرها الا على سبيل التفكه بالغريب كما ينشر في هذه الايام بعض مرويات الاب شيخو مثلاً ··· واما مقالة « الرجال المراضع » فلو علم هذا البارع ان ما ورد فيها من شبه الخوارق هو من الحوادث الطبيعية المقررة في العلم والتاريخ والتي اجمع على صحتها عامة الاطبآء والباحثين لم تقع عنده ذلك الموقع من الاستخفاف والاستهجان ولكن من بلغ من ذكآئه ان يجعل مجرى النفَس في العروق كما صرّح بذلك حضرة الاب في تفسيره لالفاظ فقه اللغة [1] لا يُستغرَب منه مثل هذا الانكار

(١) انظر كتاب فقه اللغة المطبوع بتصحيح الاب شيخو (صفحة ٣٧٩ سطر ٥) وهذا نص ما جآء هناك « (الوريد) عرقٌ في العنق ينبض ابداً وفيه مجرى

والامر الثاني ترنم المكاتب بلفظة « الشبوب » التي وضعها صاحب مقالة «الزاغ» للتمثال المتحرك اخذاً من الفرس الشبوب وهو الذي يقوم على رجليهِ ويرفع يديه ... (كذا) . ولا ريب ان هذا الوضع من جنس تلك الرواية مما دلنا على حسن ذوق الواضع في الجمع بين المتناسبات .. فهل من يشك بعد هذا ان اللغة قد سعدت في هذا العصر بفضل حضرة الاب ومريديه وان ما فاته احياؤُه في كتبه يحييه مكاتبوهُ في المشرق

عَوْدٌ الى ما هنالك

ذكرنا في الجزء العاشر من هذه المجلة بعض ما اتفق لنا العثور عليهِ من الابيات والقصائد التي رواها حضرة الاب لويس شيخو في كتابهِ شعرآء النصرانية وخبط في تسمية ابحرها ذلك الخبط العجيب مما كان في غنًى عن الخوض فيهِ والتعرض لتبعاتهِ ونحن موردون هنا امثلةً من سائر الابيات التي افسد اوزانها في الكتاب المذكور وغيرهِ على ما وعدنا بهِ هناك وهي اكثر من ان تتسع لها هذه الصفحات ولكنا سنجتزئ منها بالقدر الذي نظنهُ

النفَس » ..... انتهى بحرفهِ ورسمهِ . قلنا وكم لحضرة الاب من امثال هذه الفائدة في الطب والهيئة والتاريخ والجغرافية وعلم الحيوان وغيرها كقوله في الكتاب المذكور (ص ٣٧٠) الضب حيوان يسميهِ العامة حربابة ... وقولهِ (ص٣٨٣) عمر بن الخطاب الخليفة الثالث ... وفي شرح مجاني الادب (ص ٨١) الراقي الذي يحسب سير النجوم وعلاقتها بالافعال البشرية ... وفيهِ (ص ١٨١) زحل اسم سيارٍ من السيارات التسع .. وكرره في صفحة ٤٧٦ . وفيه (ص ٤٧٩) العقاب .. وقعه في القطب الشمالي في وسط المجرة ...! وفيه (ص٤٨١) ليس الصوت منفرداً بالتوقف على تموج الهوآء بل النور ايضاً ..... وانظر تعريفه للاقاليم (ص١١٧) ووصفهُ للجوزآء (ص ٤٧٩) وقس على ذلك مما يطول استقرآؤُه

كافياً لأن يعرّفه منزلته من المقام الذي رام ان يحشر نفسه فيهِ حتى اذا اطّلع على مقدار رأس مالهِ من هذه البضاعة لاذ بالمسالمة والسكوت واقلع عن موقفٍ لا يكون حظهُ فيهِ الا الفشل والندم • فمن تلك الابيات ما رواهُ في شعرآء النصرانية (ص ٨٥) من قول القائل

ايها ذا الذي لم يُجِب   عليك بحيٍّ يجلّي الكُرَب

الشطر الاول من هذا البيت من مجزوء المتدارك والثاني من المتقارب وهو بحر سائر الابيات وحينئذٍ فلكي يلحق الاول بالمتقارب يجب ان يزاد في اولهِ وتدٌ مجموع كأن يقال « أَلا ايهاذا » مثلاً ولعل هذا هو الاصل فيهِ فيستقيم • ومنها ما رواهُ (ص ٤٥٥) لعديّ بن زيد يصف سحاباً

مَرِحٌ وبلهُ يسحُّ سبوب ال   سَّما مجّاً كأنهُ منحورُ

وهو ولا شك قرأ « السما » بغير الف على ما عرفت من عادتهِ في الاختلاس — أي اختلاس حرف المدّ لا شيء آخر — فلم يظهر لهُ ما فيهِ من الفساد• والصواب « سبوب المآء » • ثم روى بعدهُ

زجلٌ عجزهُ يجاوبهُ دُفٌّ   لخوانٍ مأدوبةٍ وزميرُ

وفيهِ اما زيادة سببٍ خفيف في آخر الصدر لانهُ ينتهي بالفآء المدغمة من قولهِ « دُفٌّ » او زيادة حرفٍ متحرك في اول العجز اذا نُقل هذا السبب اليهِ وحينئذٍ فالصواب في روايتهِ « لخُوْن » بحذف الالف وبضمّ اولهِ وسكون الواو جمع خوان على حد كُتُب وكتاب ورُوق ورواق وهو مقتضى قولهِ « مأدوبةٍ » بالتأنيث فانهُ لا يصلح صفةً لخوان لانهُ مذكر • وروى في الالفاظ الكتابية (ص ١٦) لغير مسمًّى

دمآؤهم ليس لها طالبٌ　　　مطلولةٌ مثل دم العبيدِ

فجاء الشطر الاول من السريع والثاني من الرجز وقد اصلحهُ في آخر الكتاب بما تجالّ عن ذكرهِ والصواب على هذه الرواية « مثل دمآء العَبِيدْ » والدال ساكنة . وروى في كتاب علم الادب (ص ١٣٢) قول النابغة

فقال تعالي نجلٌ الله بيننا　　　على ما لنا او تجزي ليَ آخرَه

ولا يخفى ما في الشطر الاول من الخلل والصواب « نجعل » مكان « نجلّ » وقد رواهُ بحذف العين وتشديد اللام فكان حظ هذا البيت على عكس ما قيل في بيت ابي نواس المشهور لانهُ قُلعت عينهُ فعمي . وروى فيهِ (ص ١٤٢) للبحتري

مصحةّ ابدانٍ ونزهةُ اعينٍ　　　ولهوِ نفوسٍ دائمٍ سرورُها

وفي الشطر الثاني نقصٌ لا يخفى والصواب « وسرورُها » بالعطف وانما حذف الواو لان القافية مرفوعة وهو قد ضبط « لهو » بالجرّ وهذا عجيب مع انهُ قد ضبط « نزهة » بالرفع وحينئذٍ فلم يبقَ الا ان يرفع « سرورها » بالفاعلية لدائم وهو ضربٌ من الذكاء لا ننكرهُ عليهِ . وروى فيهِ ايضاً (ص ١٦٠) لغير مسمى وهي ابياتٌ عن لسان الشمع

ايها الخمر قد اطلت الفخارا　　　أما عقول الصحاة مثل السكارى

فزاد همزةً في اول الشطر الثاني فافسد الوزن والمعنى جميعاً والصواب « ما عقول الصحاة » كما هو ظاهر . وروى من هذه القطعة بعد ذلك

اذا ما كنتُ في المجالس خلتُ　　　كرياضٍ قد اثبتت ازهارا

وفي الشطر الاول خللٌ ظاهر الا انهُ قرأ « اذا » باختلاس الالف على عادته

والصواب « واذا كنت » او « انا ان كنت » مثلاً . وقولهُ « خلتُ » فاسد الوزن والمعنى وصوابهُ « خِيلَت » والضمير للمجالس كما هو مقتضى المعنى . وقولهُ « اثبتت ازهارا » لا معنى لهُ والصواب « انبتت » بالنون اولهُ مكان الثاء . وروى في سادس المجاني (ص١٨٠) للطغرآئي

وكرمةٍ أعراقها من الثرى بعيدة المنزع والمضربِ

وظاهرٌ ان الشطر الاول من الرجز والثاني من السريع وهو بحر سائر القصيدة فالصواب ان يُروَى الشطر الاول « اعراقها في الثرى » . وروى من هذه القصيدة ايضاً

ترى الثريّا من عناقيدها تلوح في الخُضْر كالغيهبِ

والشطر الثاني فاسد الوزن لا يمكن ردّهُ الى شيءٍ من الابحر وصوابهُ « تلوح في أخضَرَ » اي في ورقٍ اخضر . وروى في هذا الجزء (ص١٥٦) لابي العلاء المعرّي

ام كنتِ اودعتِها خائفةً نخان والخون اقبح الشيمِ

وهو من مضحك التصحيف والبيت من قصيدةٍ عن لسان رجلٍ يسأل امهُ عن درع ابيهِ والاصل « اودعتِها اخا ثقةٍ » فتصحف عليهِ « بخائفة » . ومثلهُ ما رواهُ في رابع المجاني (ص ١٨٣) لمطيع بن اياس

ثناؤُ من اميرٍ خير كسبٍ لصاحب معنٍ واخي ثرآء

وخلل الشطر الثاني لا يخفى على من لم يسمع الشعر قطّ وصوابهُ « لصاحب مغنمٍ » وانّما اوقعهُ في هذا ان البيت قيل في معن بن زائدة فتصحف عليهِ مغنم بمعن وضاع بذلك الوزن والمعنى . واغرب من هذا وذاك روايتهُ

لبيت السموأل (ص ٢٤١) من كتاب علم الادب

يقرّب حب المنون آجالنا لنا وتكرههُ آجالهم فتطولُ

فتصحف عليهِ الموت بالمنون وما ندري كيف ذلك مع اشتهار هذه القصيدة حتى لا تكاد ترى في غلمان المدارس من لا يحفظها على ظهر قلبهِ . واغرب من كل ذلك ما رواهُ (ص ١٤٣) من هذا الكتاب لغير مسمّى

اذا ما الجواد جنَّ واكفهرّا وجُرَّ من الشتآء الذيل جرّا

الشطر الثاني من الوافر وهو بحر سائر القصيدة واما الشطر الاول فكما تراهُ لا يمكن ان يُردّ الى بحر وما نعلم كيف يقع هذا التحريف لمن عندهُ ادنى ذوق في تمييز الاوزان فضلاً عن مؤلفٍ في العروض ولا نطالبهُ بالمعنى فقد عرفت انهُ لم يعوّدنا ان نطالبهُ بمثل ذلك . ونظن المطالع لا يحتاج ان نرشدهُ الى صحة هذا الشطر وهي ان يُقسَم لفظ « الجواد » نصفين فيُروى النصف الاول « الجوُّ » بتشديد الواو وتُجعَل الالف والدال مع « جنَّ » كلمةً واحدة على وزن اكرم حتى تصير صورة الشطر هكذا « اذا ما الجوُّ أدجَنَ واكفهرَّا » فيستقيم الوزن ويظهر المعنى

وقد اذكرتنا هذه النكتة نكتةً مثلها رايناها لهُ في منتخبات الاغاني (ج ١ ص ٨٨) وان لم تكن مما نحن فيهِ حيث روى هذ البيت

ومن عجبٍ عليَّ لعمرِ أُمٍّ غذتكَ وغيرها تيَّامينا

ووضع على آخر البيت رقماً احال بهِ المطالع على الهامش وكتب في الهامش (كذا في الاصل) واراد ان يخرج من عهدة هذا البيت فالزم نفسهُ عهدةً لا يخرج منها. وذلك انهُ ظنَّ لفظة « ها » الواقعة بعد « غير » ضميراً للانثى

فقصلها عما بعدها وضمها الى غير فبقيت تمة البيت « تيًّا يمينا » وهو لفظٌ لا معنى لهُ وبذلك ذهب معنى البيت من اصلهِ . والصواب ان « ها » حرف تنبيه أُدخل على اسم الاشارة بعدهُ الذي هو « تيًّا » مصغَّر تا او تي فصار « هاتيًّا » . وغير مضافة الى اسم الاشارة ويميناً تمييز كما في قولهم ان لنا غيرها ابلاً . وتحرير البيت أحلف بعمر الأُمّ التي غذتك وبغير هذه اليمين ونستوقف القلم عند هذا القدر وقد بقي من دون ما ذكرناهُ شيءٌ كثيرٌ اضربنا عنهُ خوف الملل والله المسؤول ان يهدي بصائرنا ويصلح سرائرنا ولا حول ولا قوة الا بالله

آثار ادبيّة

كتاب نوادر الكرام في الجاهلية والاسلام — اهديت لنا نسخةٌ من مؤلفٍ بهذا العنوان لحضرة جامعهِ الاديب ابرهيم افندي زيدان صاحب مكتبة الهلال بالقاهرة اودعهُ كثيراً من نوادر ارباب الكرم واخبارهم الشائقة مما خلّد ذكرهم على غابر الدهر وكان نموذجاً للمقتدي بهم في كسب المحامد وجلب الاجر وقد حلاهُ بكثيرٍ من فصيح الشعر ورائقهِ في مدح السخاء وذم البخل بحيث كان كتاب فكاهةٍ تُقطع بهِ الاوقات وكتاب أدبٍ تراض بهِ النفس على مكارم الاخلاق وكتاب تعليم لمن رام اقتباس ملكة الشعر والانشآء . وهو يشتمل على ١٧٠ صفحة متوسطة ويباع في المكتبة المذكورة وثمنهُ خمسة غروش اميرية

فكاهات

رواية

الكفّارة (١)

كان في سنة ١٨٤٨ في المانيا رجلٌ عظيم الشأن يُدعى الكُنت منسفلد يقطن قصراً عظيماً فاخراً تحيط بهِ اراضٍ خصيبة على بعد بضعة اميال حول القصر وكلها من الاملاك التابعة لهُ • فلما كان في احد الايام جلس الكنت على كرسيّهِ وامامهُ فتى مرتدٍ بثياب الجندية طويل القامة حسن الهيئة هو ولدهُ الوحيد فجرى بينهما الحديث الآتي • قال الكنت لا بد يا ولدي كارل من أن اطلعك على امور لا يصح كتمانها بعد فاعلم يا ولدي ان الكُنتة ارنستين نسيبةٌ لمليكنا الامبراطور فردريك وليم وقد خصصها الامبراطور بملايين من الدنانير ولكنهُ اشترط عليها ان لا تتسلّم سوى ربع المال الى ان تتزوج ويجب ان يكون زواجها بفتى من الاشراف ذي غنى واملاك وافرة وانت تعلم ان الخسائر الفادحة والمصائب التي ألمّت بنا في الماضي قد حنتني تحت أثقال الدين واصبحت جميع املاكنا رهناً في قبضة يد المحامي مكاسن • والآن وقد أمست شمس حياتي على وشك الغروب فانا اودّ ان أراك قبل موتي مالكاً شرعياً لاملاك منسفلد وزوجاً للكنتة ارنستين فعليك اذاً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

يتوقف فكاك القصر والاملاك وامامك مجالٌ للفوز فكن رجلاً ودع شيبتي تنحدر الى الهاوية بسرور. فقال كارل ولكن من أين لي يا أبي ان احصّل مبلغاً عظيماً كالمبلغ اللازم لتخليص القصر والاملاك . قال قد لاحظت ولابدّ يا ولدي ان الامبراطور يميل اليك جدًّا وقد قرَّبك كثيراً من شخصهِ ورقَّاك سريعاً وربما عهد اليك قريباً في مهماتٍ اذا قضيتها على حسب مرادهِ تنال فوق ما يلزمنا . قال ولكن ما عسى أن تكون المهمات التي سيندبني اليها . قال أنت عالم بالحرب القائمة الآن بين الدولة العثمانية وروسيا وقد تحالفت انكلترا وفرنسا على مساعدة الاتراك وقام بعض رجالنا يطلبون من الامبراطور ان يمالئ المملكتين المتحالفتين على كبح جماح الروس ولكنهُ لارتباطات سرية بينهُ وبين القيصر لم يجب وقد اسخط رفضهُ بعض كبرآء اعوانهِ فتخلوا عن وظائفهم وبلغ الامبراطور من عهد قريب ان بعضهم ينوي اثارة فتنة بين الجنود واضطرارهُ الى الدخول في الحرب فاقلقهُ هذا الامر واظن انهُ سيفوض اليك السعي في تدارك هذا الخطر. فاذا خدمك التوفيق وتمكنت من معرفة احد القائمين بهذه الثورة نلت ولا شك رضى الامبراطور والاموال الطائلة فنفي ما علينا ونسترجع هذا القصر واملاكهُ ثم تقترن بالكنتة ارنستين وتصبح اغنى واعظم رجل في المملكة الالمانية . وقد ذكرتَ لي انك مأمورٌ بمقابلة الامبراطور في هذا المسآء فاذهب يا ولدي وكن رجلاً وليوفق الله مسعاك

وكانت الشمس قد قاربت المغيب فخرج كارل من حضرة والدهِ وكان حصانهُ امام باب القصر فامتطاهُ وسار تتجاذبهُ افكارٌ شتى وجعل يكلم نفسهُ

فقال أجَل ان من اوجب الامور ان اسعى جهدي في ارضاء مليكنا لعلّي افوز منهُ بمكافأةٍ اتمكن بها من فكاك القصر والاملاك من يد مكاسن . اما الكنتة ارنستين فلا انكر هيامها بي وانني بمالها ساكون اغنى انسان في المانيا ولكني قد عاهدت صوفيا ابنهيم على الحبّ فكيف انكث عهدي . وما زال كارل يردد هذه الافكار حتى بلغ حديقة في وسطها قصر بديع البناء فترجل عن جوادهِ وسلمهُ الى خادم هناك ثم دخل الحديقة وجلس على كرسيٍ من الحجارة . وكان القصر المذكور للكولونيل ابنهيم والد صوفيا المذكورة وكان ابنهيم من رجال البلاط الامبراطوري ومن دهاة القواد محبوباً عند الجيش والامة عموماً وكان فيهِ بعض الاستبداد على الامبراطور فنوى الامبراطور تنكيسهُ ولما طلبت رجال الالمان معاونة الاتراك على الروسية كان ابنهيم أول القائمين بذلك فانكر الامبراطور طلبهم وأهان ابنهيم فلم يحتمل تلك الاهانة واستقال من منصبهِ وجاء فاعتزل في قصرهِ . وحدث ان اجتمع كارل مرةً بالفتاة فاحبها وأحبتهُ واقسما على الوداد سرًّا فكان يوافيها الى الحديقة ويجددان احاديث الحب على غفلةٍ من الرقيب . وما جلس كارل كما ذكرنا بضع دقائق حتى اقبلت صوفيا فنهض للقائها وسارا كلاهما يتمشيان بين اشجار الحديقة ورياحينها فقالت صوفيا اني لم اكتم عن والدي شيئاً في حياتي سوى امر اجتماعي بك يا كارل أفلا توافقني ان اطلعهُ على ذلك . قال اياكِ ان تفعلي الآن فان العداوة الموجودة بين والدكِ وأبي بسبب اختلاف آرائهما فيما يتعلق بالحرب الحاضرة لا يسهّل قبول والدكِ بي فالاصلح ابقاء ذلك الى ان نرى ما الذي سيكون . قالت ولكني اخاف ان تنقلب الى

غيري ويعلم والدي بذلك بعد اوانهِ فلا انجو من توبيخهِ . قال لا يخطر في بالكِ هذا الامر فان الكنتة ارنستين وجميع مقتنياتها رهن اشارتي لو شئت ولكنني لست بفاعل وقد وهبتكِ قلبي فانتِ مالكتهُ . وما زالا على مثل هذا الحديث الى ان دنت الساعة التي عينها الامبراطور لمواجهة كارل فودّع حبيبتهُ ثم امتطى جوادهُ وسار ينهب الارض الى البلاط الامبراطوري

ولما دخل الى حضرة الامبراطور حيّا باحترام ووقف فبش الامبراطور لهُ وقال ايها الڤيكنت ان امامك من نعمي شيئاً كثيراً ان احسنت اغتنامهُ . قال كارل ما على مولاي سوى الامر وما عليَّ سوى الطاعة ولو بسفك دمي . قال الامبراطور بلغني أن جماعةً ممن خدموا الجندية يتآمرون عليَّ وقد حفظت الامر سرًّا عن كل احد سواك وانا مفوّضٌ اليك البحث عن هذه الافاعي لقطع رؤوسها فاذا فزت غمرتك بالهبات الجمة وزدتك يد نسيبتي الكنتة ارنستين فاذهب وأرني افعالك . فحنى كارل رأسهُ وخرج فتوجه توًّا الى والدهِ وكان بانتظارهِ فقص عليهِ ما جرى بينهُ وبين الامبراطور فنشطهُ والدهُ وحثّهُ على صدق السعي رجآء الحصول على مكافأةٍ تقوم بفكاك القصر والاملاك . وجعل كارل يتنسم الاخبار اياماً وكلما أعياهُ البحث قصد حبيبتهُ صوفيا فسرّى عندها من همومهِ شيئاً . وفي ذات يوم زارها حسب المعتاد وبينما هما يتمشيان في الحديقة سمع كارل جرس الباب يُقرَع تباعاً فسأل صوفيا ما عسى ان يكون ذلك قالت ان بعض اصحاب أبي يأتونهُ يوماً بعد يوم ولعلمي انهُ يُشغَل بهم كثيراً اتيقن انهُ لا يبغتنا في خلوتنا . قال كارل ولكن من هم هؤلآء الاصدقآء . قالت لا اعرف احداً منهم وانما يترآءى لي

انهم من رصفائهِ في الجندية . قال يجب ان اعرفهم مخافة أن يكون بينهم من يعرفني ويراني هنا فيخبر والدي ويفتضح امرنا . قالت اني امكنك من ذلك اذا شئت فللغرفة بابٌ زجاجيٌ مسدول عليهِ ستار اخفيك وراءهُ فترى الجميع . قال هلمَّ بنا وسار يتبع الفتاة وهي تقودهُ مدفوعةً بالحب غير عالمةٍ بما سيجرُّ عليها المستقبل من الويل والندم . ولما بلغ كارل الباب الزجاجي اختفى وراءهُ فرأى الكولونيل ابنهيم والد صوفيا الى راس مائدة وحولها اصدقاؤهُ فتبينهم كارل وعرف العدد الاكبر منهم . ثم اصغى فسمع ابنهيم يقول نعم بلغني ان الڤيكنت منسفلد يكره اعمال الامبراطور وانهُ غير ملتصقٍ بهِ الا لاغراض لهُ وكنت اود ان افاتحهُ بالامر علَّهُ ينضم الينا ولكن اخشى ان يكون ما بلغني غير صحيح فنقع في شر عملنا . فاجابهُ آخر ما لنا ولهذا الغلام الا تدري ان من يتوكأُ على قصبةٍ لا يأمن نشوبها في يدهِ . وكانت صوفيا قد استبطأَت كارل وخشيت ان يُعرف امرهُ فنادتهُ واخرجتهُ رغماً قبل ان يسمع تتمة الكلام ثم اوصلتهُ الى باب الحديقة فذهب ورجعت الى غرفتها ولكنها لم تلبث ان شعرت بتبكيت ضميرها على ما فعلت وتصورت لها امورٌ شتى فطلبت الراحة بالرقاد ولكنها لم تنم الا نوماً مزعجاً تخللتهُ احلامٌ مخيفة .

اما كارل فتوجه الى بيتهِ وهو ثملٌ بما اكتشفهُ وايقن بالحصول على نعم الامبراطور ولكنهُ كان يخشى ان يحدث ما يسوء حبيبتهُ وبعد مقابلة والدهِ وطَّن النفس على اتمام ما نواهُ وتوجه الى القصر الامبراطوري وكان الامبراطور قلقاً مشتت الافكار فلما دخل عليهِ كارل اقبل عليهِ بوجههِ وقال ما وراءك . قال خيرٌ يا مولاي فاني قد وقفت على الامر كلهِ وعرفت زعيم الثورة واعوانهُ

فجحظت عينا الملاك وقال قل لي من ومن · قال اما الزعيم فهو الكولونيل ابنهيم ومعهُ ... واراد ان يتم كلامهُ فقال الامبراطور حسبك قد عرفت الافعى ولا اجهل اولادها فاياك ان يعلم احدٌ بذلك الى ان تصدر اوامري · اما انت ايها الفيكنت فكن من الآن جنرالاً في حرسي الخاص وخذ هذا جزاء امانتك ثم دفع اليهِ اوراقاً فتناولها كارل وانحنى على يد الامبراطور فقبلها وخرج · وشعر حين لفظ اسم والد حبيبتهِ ان خنجراً قد اخترق فؤادهُ وأضاع رشدهُ فسار على غير هدًى الى ان بلغ القصر ودخل الى غرفة والدهِ وكان بانتظارهِ فقص عليهِ الامر والقى اليهِ بالاوراق فنظر فيها الاب فاذا هي تزيد عما يلزمهُ لفكاك القصر والاملاك فبرقت اسرتهُ وصاح ضاحكاً الحمد لله · ثم ذهب كارل الى سريرهِ فاقلقتهُ افكارهُ وتمثل نفسهُ بهيئة خائن دنيء فلم يقرّ لهُ قرار

اما الكولونيل ابنهيم فذهب بعد خروج اصحابهِ الى مكتبهِ واحيا الليل بالكتابة وفي الصباح انطلق الى ادارة البريد بنفسهِ والقى رسائلهُ فيها · ولما عاد الى البيت مرَّ امام غرفة ابنتهِ فرآها لا تزال بثياب الامس وهيئتها تدل على انها لم تذق نوماً فقلق لذلك وسألها عن السبب فانطرحت على اقدامهِ وقالت عفواً يا والدي فاني قد فعلت اموراً خفيةً عنك ولم ينبهني اليها ضميري الاّ مساء امس وخشيت ان ينتج منها ضررٌ فطار نومي ولو لم اخف من ازعاجك لكنت ذهبت اليك في منتصف الليل واطلعتك على امري فهل تعفو عني يا ابي · قال انهضي ياحياة والدكِ وسلوتهُ ألم تدري انهُ لولا وجودكِ لما رغبت في الحياة فسكّني روعكِ واخبريني ما يزعجكِ · فجعلت صوفيا

تقص عليهِ بدموع الخوف ما كان من الاجتماعات السرية بينها وبين كارل وما فعلت اخيراً فعبس الكولونيل وقدحت عيناهُ شراراً ثم سكَّن جأشهُ وقال اني لا احزن على نفسي يا ولدي بل احزن لاجل ما سيحل بكِ وباصحابي. والآن فلم يبقَ الا ان نبادر وقوع المحذور فاسمعي ما اقول. انني الآن عائدٌ من ادارة البريد حيث القيت رسائل الى جميع اصحابي اوضحت لهم فيها ما قررناهُ امس ولا شك ان كارل الخائن سيخبر بما رأى وربما صدرت الاوامر بالقبض على هذه الرسائل فيقع اصحابي في الشر العظيم وعليهِ . فانا راجعٌ لأستردَّ الرسائل المذكورة ولكن ربما أُلقي عليَّ القبض فخذي هذا المسدس ومعي مثلهُ فاصعدي الى سطح القصر وراقبيني فاذا رأيتِ الشُرَط قادمين الى القصر فاطلقي المسدَّس علامةً لي كي لا ارجع بل اذهب وانتظركِ في كرُنستاد واذا أُلقي عليَّ القبض اطلق لك مسدسي فتعلمين بالامر فاتركي القصر واذهبي الى كرنستاد وانتظري اشعاراً مني واجتهدي ان تذهبي الى اصدقآئنا وتعلميهم بما جرى ليكونوا على بصيرة . ثم ودع الاب ابنتهُ وهي تقبلهُ بدموع الحزن والاسف وسار توًّا الى محل البريد وقال للمأمور انني منذ ساعة احضرت رسائل الى اصدقآئي أدعوهم لوليمة ولكن عرض لي ما ألزمني ان اغير الوقت المعيَّن فهل لك ان تعيد اليَّ الرسائل لاصلحها . فقال المأمور انك منذ وضعت الرسائل في صندوق البريد لم تعد ملكاً لك ولا يمكن ارجاعها . وللحال شعر ابنهيم بيدين من حديد قد امسكتاهُ ورأى نفسهُ مقيداً بين شرطيين وكان ذلك ما يتوقعهُ فاطلق مسدسهُ في الهوآء وسار معهم صامتاً وسمعت صوفيا صوت المسدس فصاحت بتلهف واسرعت

لاتمام أوامر والدها

وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ذهب الكنت منسفلد وولدهُ كارل الى المحامي مكلسن ومعهما الاوراق التي وهبها الامبراطور لكارل فدخلا عليهِ وطلبا منهُ الصكوك ليفيا الدين فاخرج لهما الاوراق ونقداهُ قيمتها واذ ذاك دخل خادم المحامي يقول ان بالباب سيدةً تطلب مواجهتهُ وقبل أن يتمّ كلامهُ دخلت صوفيا ابنهيم ولما وقع نظرها على كارل صاحت بهِ ويلٌ لك أيها الخائن والقاتل ثم نظرت الى مكلسن وقالت لهُ قد اطّلع هذا الخائن على اعمالكم وبلغها الى الامبراطور وألقي القبض على والدي وسيُقبَض عليكم ايضاً فاسرع وانجُ بنفسك وبلّغ اصحابك . وكانت في أثنآء كلامها قد وجهت مسدسها الى كارل وابيهِ وقالت اياكما ان تتحركا من مكانكما فان ابنة ابنهيم في يأس ويدها لا تخطئ المرمى فوقف كلاهما مبهوتين وأدرك مكلسن الامر بلحظةٍ واحدة فاعاد صكوكهُ الى صندوقهِ الحديدي ودفع بالقراطيس المالية الى وجه كارل قائلاً الآن علمت انك اشتريت بهذه الخيانة قصرك واملاكك فسآء فألك اني لا اقبل مال الخيانة وسيُنزَع القصر من يدك اليوم ايها الخائن . ثم خرج من الغرفة وبقيت صوفيا ساحرة الاثنين بمسدسها الى ان فُتح الباب ودخل ابن المحامي فقال لصوفيا لقد نجا أبي واصحابهُ وكلهم الآن على طريق كرنستاد مدينة الامان فشكراً لكِ وازيدكِ بشارةً اخرى ان والدكِ ايضاً قد تخلص من الشرطة ونجا . ثم نظر الى كارل ووالدهِ وقال لهما اما انتما فاتبعاني الى قصر منسفلد لتسلماني اياهُ بموجب هذا الامر . فأنَّ الكنت حزناً وهطلت دموع كارل ندامةً وصاحت

صوفيا فرحاً وخرجت من الموضع

. . . .

استولى ابن مكلسن على املاك منسفلد واصبح الكنت طريداً فقيراً ورأى الامبراطور انهُ لم يُقبَض على أحد من رجال الثورة فظن ان كارل قد مكر بهِ وانفذ اليهم بلاغاً فسخط عليهِ وترقب معاقبتهُ وكان ضمير كارل يؤنبهُ وافكارهُ تعذبهُ فاخذ والدهُ وتوجه الى كرنستاد ايضاً وكانت حينئذٍ ملجأً من ظلم فردريك وليم وأقام هناك في نزلٍ مع والدهِ . وتكاثرت الاحزان بعد ذلك على الوالد الشيخ فمرض مرضاً ثقيلاً ويئس الاطباء من شفائهِ وكان كارل مع مقتهِ لهُ لما اوقعهُ فيهِ من المصائب لايفارق سريرهُ ويعاملهُ كما تعامل الام ولدها . وكان مدة مرض الكنت تصل الى غرفتهِ في كل يوم باقةٌ من الازهار وشيءٌ من الفواكه التي يحبها المريض فلم يبالِ كارل اولاً بمن يرسل هذه الهدايا لاهتمامهِ بمرض والدهِ وبعد ما توفي سأل بعض الخدم عمن كان يحضر لهُ الازهار والفاكهة فقال سيدة في النزل المجاور لنا . فلم يشكّ كارل في انها صوفيا قد عاد الى قلبها الحب الاول وصفحت عنهُ فسار الى النزل ليشكرها ويستغفرها عما مضى ولما دخل الى غرفة السيدة وجدها الكنتة ارنستين فوجم عن الكلام وظهرت عليهِ علامات القلق والارتباك ورأت الكنتة ذلك فتبسمت وقالت لا تخف يا كارل فلك عندي ما يسرّك . قد اطلّعت مؤخراً على تفصيل تاريخ حياتك وأود من كل قلبي انك تقترن بصوفيا لو لم تكن قد خنتها وكنت العامل على قتل والدها وآلها . ولكن لم يفت اصلاح ما مضى فانني قد تداخلت في امرك عند

الامبراطور فصفح عنك ووثق بامانتك لهُ ورجعت منزلتك عندهُ كما كانت وزيادةً على ذلك فقد حصَّلت منهُ هذا الامر الامبراطوري الذي يصفح فيهِ عن ابنهيم واصحابهِ ويسمح لهم بالرجوع الى برلين فخذ هذا الامر واذهب الى حبيتك صوفيا ومتى رأت انك حامل اليها امراً بالعفو عن والدها تحققت محبتك لها وعادت الى ما كانت عليهِ فخذها امرأةً لك واجتهد ان تنسيها في ايامها الآتية ما قاستهُ في الماضية • فلم يدرِ كارل كيف يشكر الكنتة على رقة عواطفها فاخذ الامر وقبل يدها وخرج ثم بحث عن محل وجود ابنهيم وطلب مواجهة صوفيا فجثا أمامها واجتهد في طلب رضاها فكانت تكلمهُ بكل اعراض وأظهرت لهُ انها وان صفحت عنهُ فلن تنسى خيانتهُ • فدفع اليها الامر الامبراطوري وقال أستودعكِ الله اذن يا صوفيا فانهُ لم يعد لي اقامة في المانيا وقد فقدت فيها كل عزيز لديَّ وأنا ذاهبٌ الى حيث تدور رحى الحرب فاما أن أموت منسيًّا أو اكسب لنفسي اسماً يغطي على سيئاتي وخرج من عندها حزيناً • وبعد ذلك أطلعت صوفيا والدها على ما جرى وناولتهُ الامر بالعفو عنهم فاطلع اصحابهُ عليهِ فرجع بعضهم الى برلين أما ابنهيم وبقية أصحابهِ فتوجهوا للانضمام الى الجيش المحارب ضد الروسية واخذ ابنهيم ابنتهُ معهُ • ولما بلغوا موقع القتال تولى ابنهيم قيادة فرقة في الجيش العثماني فكان يهجم برجالهِ الى أشد مواقع الحرب خطراً ويحمل على الروس حملاتٍ تدك الجبال حتى طار صيتهُ وارتعد الجميع لدى ذكر اسمهِ • وفي ذات يوم بينما كان القتال ملتحماً سقط ابنهيم عن جوادهِ ثم سقطت بجانبهِ قنبلة من مدافع الاعدآء وقبل أن تنفجر أسرع ضابطٌ كان بالقرب منهُ فحمل

القنبلة بيديهِ وأسرع حتى ابتعد بها عن ابنهيم والقاها الى الارض فانفجرت وأضرّت بالضابط كثيراً اذ بقرت بطنهُ وكسرت يديهِ واقبلت رجال ابنهيم فانتشلت قائدها وحملوا الضابط المسكين في عربة نقل . ولما انتهت الموقعة امر ابنهيم أن يُنقل الضابط الى خيمته ليعتني به بنفسهِ ولما وصلوا بهِ الى الخيمة أمر ابنهيم ابنتهُ أن توجه معظم عنايتها الى ذلك الجريح الذي خلصهُ من الموت فلبّت للحال ولكنها ما وقع نظرها على وجه الجريح حتى صاحت بدهشة ان هذا كارل منسفلد يا أبي

وكان في هيئة كارل ما يترجم بافصح بيان عما دفعهُ الى فعل ما تقدم وقرأ في عيني صوفيا ووالدها انهما فهما ضميرهُ وانهما صفحا عنهُ صفحاً باتاً بل نسيا عند رؤيته في تلك الحالة كل ما جرى في الماضي فجمع قواهُ وقال والآن هل تصفحين عني يا صوفيا وهل تحققتِ انني كنت مدفوعاً الى ما فعلت واني ندمت على ما صدر مني الى الموت . قالت لا تذكر الماضي فاني قد نسيتهُ واني لا امنية لي الآن ان تُشفى حتى اكون لك . قال هيهات ولكن كفاني انني كفَّرت عن ذنبي فسأموت سعيداً ثم شهق ففاضت روحه

فحزن ابنهيم وابنتهُ على كارل ودفناهُ بما لاق لهُ من الاكرام ولما هدأ ثائر الحرب نقلا عظامهُ الى المانيا حيث ضُمَّت الى ضريح أسرتهِ ولبثت صوفيا بقية حياتها عذراء لتسلية والدها وندب الفتى الذي لم تنكر حقيقة كفارتهِ